المحاضرة بأصول المناظرة!

في أصولِ المناظرةِ وآدابِها والفوائد العقدِيَّة

لِلشَّيخ الدُّكتور:
أَبي عائش مُحَمَّد سَميح فَاضِلِ الشَّيخ
(وفقه الله لمرضاته)

عناصر المحاضرة:

1. حدُّ المناظرة لغة واصطلاحاً.
2. التفصيل في حكم المناظرة.
3. آداب المناظرة وشروطها
4. الفوائد العقدية المستنبطة من مناظرة الإمام أحمد بن حنبل لرأس الجهمية ابن أبي دؤاد.

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فمرحبًا بحضراتكم في لقاء جديد في هذه الدورة المباركة دورة **"رسالتان في يوم"** واليوم إن شاء الله مع رسالتين لإمام من أئمة السنة، بل هو إمام أهل السنة بحق الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ.

ترجمة موجزة لإمام أهل السنة:

هو الإمام حقًا وشيخ الإسلام صدقًا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني المروزي ثم البغدادي.

أحد الأئمة الأعلام، كان والده من أجناد مرو، مات شابًا وله نحو من ثلاثين سنة، وقد وُلد الإمام رَحِمَهُ اللهُ سنة أربع وستين ومائة في شهر ربيع الأول، وتوفي والده بعد ولادته بثلاث سنين فوليت أمه تربيته.

نشأ محبًا للعلم حتى قال هو عن نفسه رَحِمَهُ اللهُ: "ربما أردت البكور في الحديث فتأخذ أمي بثيابي حتى يصبح الناس". وهذا يدل على أنه طلب العلم صغيرًا جدًا.

وقال أبو بكر المروزي: "قال لي أبو عبد الله: كنت وأنا غُلَيِّم أختلف إلى الكتاب".

وقال أبو عفيف عن أحمد كما في المناقب: كان رَحِمَهُ اللهُ في الكُتاب معنا وهو غُليِّم نعرف فضله، وكان الناس يكتبون إلى منازلهم -يعني كان الجند يكتبون إلى أهليهم- فيبعث نساؤهم إلى المُعلِّم"، يقولون للمُعلِّم في الكتاب ابعث لنا بأحمد بن حنبل ليكتب، فكان رَحِمَهُ اللهُ يجيء إليهم مُطأطئ الرأس فيكتب جوابهم، وربما أملوا عليه الشيء من المنكر فلا يكتبه لهم.

وهذا يدل على أمور:

- يدل على نبوغه المبكر حتى كان معروفًا عند المُعلم وبين أقرانه بهذا النبوغ.
- ويدل كذلك على حُسن تربيته منذ الصغر، فكان يكف بصره إذا ذهب إلى النساء مع صغر سنه، وكان لا يشاركهم في المنكر إذا أرادوا منه أن يكتب لهم شيئًا منكرًا لا يجيبهم إلى ذلك، وهذا يدل على حسن تربيته وعلى فضل أمِّه عليه وكذلك على توفيق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى له.

طلب - رَحِمَهُ اللهُ- العلم وهو ابن خمس عشرة سنة في العام الذي مات فيه مالك وحماد بن زيد، وجدَّ رَحِمَهُ اللهُ في طلب العلم ونبغ فيه. ومن مشهور قوله: "الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب، وذلك لأنهم يحتاجون للعلم مع كل نفس ويحتاجون الطعام والشراب مرة أو مرتين".

ولذلك لما سُئل إلى متى؟ قال: "من المحبرة إلى المقبرة".

وسمع هشيمًا -وكان أول شيخ له هشيم بن بشير- وابن عيينة وعباد بن عباد ومعتمر بن سليمان ويزيد بن هارون وخلْقًا كثيرًا. وحدَّث عنه البخاري ومسلم وأبو داود وأبو زرعة وابنه عبد الله وخلائق كثر.

قال أبو زرعة لعبد الله ولده: "كان أبوك يحفظ ألف ألف حديث". ويعني بذلك المكرر والأثر والمفسر وفتوى التابعي, وإلا فحديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يبلغ هذا العدد.

وقال إبراهيم الحربي رَحِمَهُ اللهُ: "رأيت أحمد كأن الله قد جمع له علم الأولين والآخرين".

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: "خرجت من بغداد فما خلَّفت بها رجلًا أفضل ولا أعلم ولا أفقه من أحمد بن حنبل".

وقال علي بن المديني: "إن الله أيَّد هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردة وبأحمد بن حنبل يوم المحنة".

وشهرته رَحِمَهُ اللهُ تُغني عن الإطناب في ذكره وذكر مناقبه.

توفي رَحِمَهُ اللهُ يوم الجمعة في الثاني عشر من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين وله سبع وسبعون سَنة رَحِمَهُ اللهُ.

هذه الرسالة التي معنا عبارة عن مناظرة دارت بين الإمام وبين رأس من رؤوس الجهمية في ذلك الوقت وهو أحمد بن أبي دؤاد.

ونحن نعلم الفتنة التي دارت في هذا الوقت وهي فتنة خلق القرآن وما كان من ثبات أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وتأييد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى له ونصرة الله عَزَّ وَجَلَّ له ولسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أعز الله عَزَّ وَجَلَّ به هذا الدين.

المناظرة : لغة واصطلاحاً:

عنوان هذه الرسالة: **(مناظرة إمام أهل السنة أحمد بن حنبل لإمام الجهمية ابن أبي دؤاد).**

والمناظرة لغة: مفاعلة, ومدارها على ثلاثة أحرف: (النون والظاء والراء).

وترجع فروع هذه الأحرف إلى معنًى واحد, وهو تأمل الشيء ومعاينته, سواء كان ذلك بحاسة البصر؛ كما في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: 22-23]، فالوجوه يوم القيامة في الجنة تنظر بنعيم الجنة وبالنظر إلى ربها تَبَارَكَ وَتَعَالَى، نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يرزقنا وإياكم ذلك.

أو بمعنى الانتظار، وذلك إذا عُدّيت بنفسها؛ كما في قول المنافقين: ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: 13]؛ أي: انتظرونا.

أو بمعنى التفكر في الشيء وهذا نظر القلب، وذلك إذا عُدّيت بـ "في"؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 185].

إذًا: معنى النظر بحسب تعديه، إن تعدى بـ "إلى" فهو النظر بالبصر، وإن تعدى بـ "في" فهو بمعنى التفكر في الشيء، وإن تعدى بنفسه فهو بمعنى الانتظار.

وأما المناظرة اصطلاحًا: فكما قلنا هي مفاعلة تكون بين اثنين. فهي نظرٌ ببصيرةٍ من جانبين في أمر ما من أجلِ الوصول إلى الصواب, وهذا هو الأصل فيها.

فالأصلُ في المناظرة: أن تكونَ من أجل الوصول إلى الصواب، ولذلك فرَّق بعضهم بينها وبين الجِدال, فقالوا: الجدال قد يكون بحق ويكون بباطل، وأما

المناظرة فلا تكونُ إلا من أجل الوصول إلى الصواب، وبعض أهل العلم لم يفرق بينهما.

فهذا هو الأصل في المناظرة: أن تكون من أجل الوصول إلى الصواب, وإلا فقد تكون لإظهار الباطل ودحض الحق وطلب الشهرة والترفع على الخلق كما هو حال مناظرات أهل البدع والضلال.

حكم المناظرة:

ومن هنا يتبين لنا حكم المناظرة وموقف أهل السنة والجماعة منها، هل المناظرة تجوز أم لا تجوز؟ وما حكمها؟

وذلك أننا نجد نصوصًا متواترة عن السلف في ذم الجدال في الاعتقاد وفي مناظرة أهل البدع وهذا مبثوث في مطولات كتب الاعتقاد.

وعلى الجانب الآخر نجد مناظرات لهم مع أهل البدع، كمناظرة ابن عباس لمن للخوارج، ومناظرة الإمام أحمد للجهمية المعتزلة، ومناظرة عبد العزيز الكناني المكي لبشر المريسي، وهي من نوادر المناظرات التي أظهرت قوة حجة أهل السنة والجماعة.

إذًا: هناك نصوص تنهى عن ذلك, وهناك نصوص كذلك وآثار عن السلف تبين مشروعية ذلك، فما هو حكم المناظرة؟

نقول: كما رجح أهل العلم وبين أهل العلم قد تكون المناظرة والجدال مستحبةً أو واجبةً؛ إذ هي من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك إن ترتب عليها بيان الحق ودفع الباطل وتثبيت المؤمنين.

وعلى هذا يُحمل ما جاء في الآيات من مدح الجدل وبيان مشروعيته، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]، وقال قوم نوح: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [هود: 32].

وفي الحديث الذي صححه الإمام أحمد: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ, يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ».

فإذا كانت المناظرة من أجل بيان الحق ودحض الباطل وتثبيت قلوب المؤمنين كانت واجبةً أو مستحبةً، وأما إن كان الأمر بخلاف ذلك لا تؤدي إلى هذه الأمور, بل تؤدي إلى أمور عكسية كبث الشبهات بين الناس ودفع الحق ونصرة الباطل وغير ذلك.

فهذا الذي تُحمل عليه الأحاديثُ والآيات التي وردت في ذم الجدال، كقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: 4]، وكقوله تعالى: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: 5]، وكقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج: 8].

وكقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ». صححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ أو حسنه في صحيح ابن ماجه.

وعلى هذا يُحمل ما جاء عن السلف الصالح في ذم مناظرة أهل البدع, لأنهم يعلمون أن ذلك لا يؤدي إلى شيء وأن الذي أمامهم لن يقبل منهم الحق. فحكم المناظرة بحالها وحسبها وحال المُناظَر، وحال المُناظِر كذلك كما سنرى.

آداب وشروط المناظرة:

ذكر أهل العلم للمناظرة آدابًا وشروطًا ينبغي أن يتحلى بها المناظر:

- **أول هذه الآداب: إخلاص النية لله**؛ لأن ذلك عبادة يتقرب بها إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، السني لا يناظر من أجل الشهرة ولا حب الظهور, وإنما يناظر إخلاصًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وابتغاء نصرة الحق.

قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: 5].

وفي الحديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ».

قال الإمام المزني كما في جامع بيان العلم: "وحق المناظرة أن يراد بها وجه الله, وأن يقبل منها ما تبين.

- **ثانيًا: النية في ذلك ظهور الحق والبعد عن الترفع والمباهاة**, ما يدخل المناظرة ولا يناظر إلا من أجل ظهور الحق.

قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: "ما ناظرت أحدًا إلا وددت أن يظهر الله الحق على يديه"، وهذا عزيز بين الخلق أن يبتغي المرء الحق أيًا كان قائله.

وقال رَحِمَهُ اللهُ: "ما ناظرت أحدًا فقبل مني الحجة إلا عظم في عيني, ولا ردّها إلا سقط من عيني"، وهذا مبدأ قرآني مدحه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: 17-18].

ثالثًا: العلم, فيُشترط في المُناظِر أن يكون عالمًا بحال المُناظَر أو من يناظِر، وكذلك أن يكون عالمًا بنقاط القوة والضعف، وإلا عادت المناظرة وبالًا على

المُناظِر والمُناظَر. أما المُناظِر فإن حجته لم تظهر، والمُناظَر كذلك إن كان من أهل البدع فإنه سيتشبث ببدعته ويظل عليها ويظن أن الحق معه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "وكل من لم يناظِر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان, ولا حصل بكلامه شفاء الصدور والطمأنينة في النفوس, ولذلك كان السلف ينهون عن المجادلة والمناظرة إذا كان المناظِر ضعيف العلم بالحجة وجواب الشبهة"، انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ في درء تعارض العقل والنقل.

وهذا الأمر نجده من بعض من يناظر أهل البدع من أهل الإلحاد والروافض والخوارج وغير ذلك, يناظرهم وليس عنده العلم الذي يستطيع أن يدحض به شبههم وما جاءوا به من الحجج، وبالتالي يعود الأمر وبالًا عليه وعلى المناظَر، وكذلك على العوام خاصة أن مثل هذه المناظرات الغالب فيها أنها تُبث على العامة ويترتب على ذلك ضرر عظيم.

- **رابعًا: وجود أصول يُرجع إليها**, لابد أن يكون هناك أصول يتفقان عليها.

ولذلك كان أحمد رَحِمَهُ اللهُ يقول للجهمية -كما سيأتي- آيةٌ أو حديثٌ, لأن المناظَر قد تذكر له حديثًا، إن لم تتفقا على أصول قد تذكر له حديثًا ويقول لك إنه لا يقبل إلا المتواتر من الأحاديث. إذًا: لابد من أصول يُرجع إليها.

قال الشاطبي: "رُوينا أن الخصمين إما أن يتفقا على أصل يرجعان إليه أو لا، فإن لم يتفقا على شيء لم يقع بمناظرتهما فائدة بحال".

واعتبر بحال أو بمناظرة ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما للخوارج، فإنه ناظرهم بآيات من القرآن ودفع شبهتهم بآيات من القرآن، لأنه يعلم أن الأصل الذي يتفق عليه جميع المسلمون القرآن وما جاء من عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

كذلك أن يكون المناظِر عنده إجادة لفن المناظرة، لأن الإنسان قد يكون صاحب علم ومع ذلك لا يجيد الكلام ولا يجيد المناظرة فلا يسعفه علمه في بيان الحق.

- **سادسًا: أن يكون هناك حاكم ذو سلطان علمي يستطيع الحكم بين المتناظرين مع تجرده للحق وقبوله.** أن يكون هناك سلطان يفصل بين المتخاصمين والمتناظرين، وإلا لم تعد المناظرة بفائدة خاصة في هذه الأزمان المتأخرة.
- **سابعًا: إن كنت ناقلًا فالصحة وإن كنت مدعيًا فالدليل،** يعني إن كنت ناقلًا في مناظرتك فلابد أن تعتمد على دليل صحيح, على آية أو حديث ثابت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وإن جئت بقاعدة أو بقول ادَّعيت أن الحق فيه فلابد أن يقوم الدليل على هذا القول.

ولذلك لما كان الجدال في مسألة الخروج مع الخوارج كان الكلام دائما يدور حول: ائتونا بحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو قول لأئمة السلف في كتب الاعتقاد الكثيرة المتواترة يجيز هذا الأمر، فإما أن يأتي بدليل صحيح خال من المعارض، وإما أن يأتي بقول لواحد من أئمة السلف ولن يجد إلى ذلك سبيلًا.

ثامنا: ضبط النفس وعدم الانفعال. لأن غالب المناظرين من أهل البدع والضلال يحملون المناظِر من أهل السنة على الانفعال وعلى الخروج عن شعوره، فإذا خرج عن شعوره ظن من يرى المناظرة أن هذا دليل على ضعف حجته وأنه لا يستطيع أن يقاوم الحجة بالحجة، فعلى المناظر أن يضبط نفسه وأن لا ينفعل.

وقد جاء عن ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ أنه كان لا يناظر أحدًا إلا وهو يبتسم, حتى قال بعض الناس: "هذا الشيخ يقتل خصمه بالتبسم". وأما الآن فالانفعال والسب والشتم وأحيانا الضرب بالنعال كما رأينا، فهذه الآداب ينبغي أن يلتزمها من أراد أن يناظر.

ما حكم المناظرات العلنية التي تعرض على العامة في التلفاز وغيره؟

أفتى بحرمتها بعض أهل العلم منهم العلامة ابن باز والفوزان، وذلك لما تعود به من الضرر العظيم على العوام بل والخواص.

والسبب الثاني: لأن المبتدعة غالبًا وأهل الشهوات لا ينتقون إلا شخصًا لا يُحسن المناظرة.

ولذلك إذا جاءوا برجل ليناظر في مسألة الغناء أو التبرج أو الاختلاط مثلا أو غير ذلك، يأتون بإنسان ليس عنده حجة وإنما يشتم ويسب ويُسفّه ولا يأتي بدليل يقنع به المشاهدين، وبالتالي أفتى علماؤنا بحرمة هذا الأمر وعدم جواز مشاهدته.

مذهب أهل السنة في كلام الله تعالى.

المناظرة التي معنا كما قلنا هي مناظرة الإمام أحمد للجهمية وللمعتزلة في مسألة عظيمة وهي مسألة كلام الله، فالذي عليه سلف الأمة وأئمتها أن القرآن

كلام الله صفة من صفاته تكلم به حقيقة سُبْحَانَهُ وَتعَالَى بصوت وحرف؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 6]. والمراد بـ "كلام الله" هاهنا القرآن.

فالله يتكلم إذا شاء بما شاء, والقرآن من كلامه الذي تكلم به وليس هو من تأليف البشر ولا من قول الملك، وقد كفَّر الله عَزَّ وَجَلَّ من قال إنه من قول البشر, فقال تعالى في بيان حاله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: 26].

وإذا قرأ القارئ القرآن فالكلام كلام الباري سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, وأما الصوت فصوت القارئ الذي يقرأ القرآن.

وقد كان الناس على هذا القول حتى أظهر القول بإنكار كلام الله وبإنكار كون القرآن كلامًا لله الجعد بن درهم، وهو شيخ الجهم بن صفوان، وكان ذلك في أواخر دولة بني أمية، وكان الجعد مؤدبًا لمروان بن محمد آخر ملوك بني أمية, ولذلك يلقب بمروان الجعدي وكان يسمى بمروان الحمار لجلده.

كان شيخا له ومعلما له، ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أن ذلك كان سببًا رئيسا في سقوط دولة بني أمية. انتشار البدع بين الناس سبب عظيم في سقوط الدول والأمم وفي تأخر النصر.

فكان مؤدبًا له, فطلبه خالد بن عبد الله القسري في دولة بني أمية حتى أمسك به وضحى به في صلاة العيد، عيد الأضحى، وقال كلمته المشهورة التي أثنى عليها وعلى فعله أهل السنة والجماعة، قال: "أيها الناس ضحوا تقبل الله منا ومنكم, فإني مضح بالجعد بن درهم, فإنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليمًا ولم يتخذ إبراهيم خليلًا"، ونزل فذبحه في أصل المنبر فشكر الناس له هذا الفعل.

ولكنه قبل أن يُقتل أوحى بهذه البدعة لتلميذه الجهم بن صفوان فنُسبت البدعة إليه لأن الجهم اعتنى بنشرها, وكان صاحب لسان كان متكلمًا بخلاف الجعد فلم يكن صاحب لسان, فنُسب الأمر إليه وسميت هذه الفرقة بـ "الجهمية".

ثم أخذها عن الجهم بن صفوان أتباع جهم، وأخذها عن أتباع جهم بشر بن غياث المريسي, فإنه لم يدرك جهما وإنما أدرك تلامذته وأتباعه فأخذ هذا القول عنهم.

وكان بشر هذا أبوه يهودي، وأخذها عن بشر أحمد بن أبي دؤاد، وبشر المريسي هذا صنف الإمام الدارمي عثمان بن سعيد الدارمي كتابين عظيمين في الرد عليه, بل كان شيخ الإسلام ابن تيمية يعظم هذين الكتابين جدًا ويقول: "ينبغي لطالب العلم أن يقرأ هذين الكتابين أكثر من مرة". وهو كتاب الرد على الجهمية وكذلك الرد على بشر بن غياث المريسي.

أماأحمد بن أبي دؤاد فقد كان قاضيًا للمأمون، كان قاضي القضاة للخليفة المأمون, وهذا القول كما قلنا لم ينتشر قبل الخليفة المأمون، كل الخلفاء الذين كانوا قبل الخليفة المأمون كانوا على عقيدة أهل السنة والجماعة، ولكن لما أوحى من أوحى إلى الخليفة المأمون أن يترجم كتب اليونان وكذلك أن يستعين بهؤلاء في نصرة الحق من المعتزلة كأحمد بن أبي دؤاد وغيره، كان ذلك سببًا في انتشار هذا الرأي وهذا القول وهو القول بخلق القرآن, ففُتن بذلك خلق كثير وثبت الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ.

وسبب هذه المقالة -مقالة خلق القرآن-: ما كان من تسلط قوم من السمنية على الجهم بن صفوان -نعلم المناظرة التي دارت بين الجهم بن صفوان وهؤلاء السمنية- فنظروه في الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى وكانوا لا يؤمنون إلا بالمحسوسات: هل تستطيع أن ترى ربك؟ أن تشعر به؟ أن تمسه؟ أن تشمه؟ وهو في كل ذلك يقول لا، فقالوا له: إذًا ليس بإله، فترك الصلاة أربعين يومًا وهو في شك وحيرة -عياذًا بالله-.

وهذا يدل على أهمية علم المعتقد, وأن الإنسان ينبغي عليه أن يتضلع من هذا العلم لأنه بمجرد هذه الشبهة ترك الصلاة أربعين يومًا شاكًا في الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ثم خرج بقول ينفي به أسماء الله وصفاته, وكان هو الرأس الذي سار بعده واقتدى به كل من جاء بعده من أهل البدع والضلال، فكل البدع والضلال أُسها ورأسها الجهم بن صفوان والجهمية.

فكلام الله عند هؤلاء ليس صفة من صفاته بل هو مخلوق لم يقم بذاته سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهذا القول باطل وكفر قائله متواتر بين السلف والخلف، فالذي يقول إن القرآن ليس كلام الله بل هو مخلوق هذا كافر بإجماع المسلمين.

وشبيه منه قول الأشعرية والكلابية، فالأشعرية لا يقولون صراحة بأن القرآن مخلوق ولكن يقولون بالقرآن النفسي وأن الله لا يتكلم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يتكلم لا بصوت ولا بحرف, وأن هذا الكلام الموجود في المصاحف هو عبارة عن كلام الله.

طيب هذا كلام من؟ إذا كان الله لا يتكلم حقيقة وإنما هو كلام نفسي؟ هذا إما أن يكون وحيًا من الله وإلهامًا من الله لجبريل, فجبريل هو الذي عبَّر عما في

نفس الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بهذا القرآن بهذا الكلام وإما أن يكون كلام محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالخلاصة عندهم: أن هذا القرآن ليس كلام الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى, فعادوا إلى القول بخلق القرآن, لأنهم لا يثبتون كلاما بصوت وحرف له سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

هذه المحنة بدأت في خلافة المأمون واستمرت في خلافة المعتصم والواثق حتى رُفعت بفضل الله على يد الخليفة المتوكل الذي نصر السنة وقمع البدعة.

أحمد رَحِمَهُ اللهُ لم يلق المأمون ولم يناظر المعتزلة أمام المأمون وإنما كانت مناظراته أمام المعتصم وكذلك أمام الواثق، وهذه المناظرة التي معنا كانت أمام المعتصم, يرويها ولده صالح.

مناظرة الإمام أحمد مع التعليق عليها:

قال الإمام صالح ابن الإمام أحمد بن حنبل الشيباني البغدادي رَحِمَهُ اللهُ: قال أبي:

"فلما كان ليلة الرابعة بعد عشاء الآخرة وجَّه -يعني المعتصم- ببغا إلى إسحاق. وهو إسحاق بن إبراهيم نائب المأمون على بغداد ومن بعده المعتصم، قلنا أحمد حمل إلى المأمون أرسل المأمون إلى أحمد لكي يؤتى به وكان معه محمد بن نوح رَحِمَهُ اللهُ, وذلك بسبب الامتناع عن الإجابة بخلق القرآن.

وبينما أحمد كان في الطريق دعا ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يكفيه مؤنته وأن لا يلقى المأمون, لأنه جاءه الخبر أن المأمون قد سلَّ سيفه وأنه سيقتل أحمد إن لم يُجب في هذه المحنة، فاستجاب الله عَزَّ وَجَلَّ دعاءه وجاءهم الصريخ بموت المأمون, فولي المعتصم الفتنة بعده.

فقال هاهنا: فوجَّه المعتصم ببغا إلى إسحاق يأمره بحملي، فأُدخلت على إسحاق فقال لي: يا أحمد إنها والله نفسك، إنه قد حلف -يعني المعتصم- أن لا يقتلك بالسيف، وأن يضربك ضربًا بعد ضرب، وأن يلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس، أليس قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: 3] أفيكون مجعولًا إلا مخلوقًا؟

هذه الشبهة الأولى: الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: 3], فظن هؤلاء أن كل مجعولٍ مخلوق.

قال أحمد في الرد على الزنادقة في رد هذه الشبهة: وزعم -يعني الجهمي- أنَّ "جَعَل" بمعنى "خَلَقَ"، فكل مجعولٍ فهو مخلوق، فادَّعى كلمة من الكلام المتشابه يحتج بها من أراد أن يلحد في تنزيلها ويبتغي الفتنة في تأويلها، وذلك أنَّ "جَعَلَ" في القرآن من المخلوقين على وجهين:

إذا جاء الله عَزَّ وَجَلَّ بـ "جَعَل" ونسبها إلى المخلوقين فهذه على وجهين، وهذا يدل على استقراء الإمام لهذا اللفظ في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وهذا هو الفارق بين أهل السنة وأهل البدعة، أهل السنة أئمة في ماذا؟ في القرآن والسنة والحديث وغير ذلك، ولذلك قال الإمام الشافعي عن الإمام أحمد قال: "أحمد إمام في ثمان خصال، إمام في الحديث والفقه واللغة والقرآن والفقر والزهد والورع والسنة" رَحِمَهُ اللهُ.

فجعل من المخلوقين على وجهين:

الوجه الأول: على معنى التسمية، فإذا قالوا: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ﴾، أي: سموا الملائكة.

والمعنى الثاني: على معنى فعل من فعالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: 19], يعني أنهم سموهم إناثًا.

ومثله قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: 91], أي: قالوا: هو شعر وهو أنباء الأولين وأضغاث أحلام.

ثم "جَعَلَ" تأتي كذلك على غير معنى التسمية، قال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: 19], فهذا فعل من فعالهم.

ثم ذكر "جعل" من الله على معنى الخلق وعلى معنى غير الخلق، فـ "جعل" إذا نُسبت إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ووُصف الله بها فتأتي بمعنى "خَلَقَ"، وتأتي بمعنًى يخالف ويغاير معنى "خَلَقَ", قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: 1], يعني خلق الظلمات والنور، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [السجدة: 9], أي: خلق لكم السمع والأبصار والأفئدة، ومثله في القرآن كثير.

وجاءت "جعل" في القرآن على غير معنى الخلق؛ كما قال الله لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124], وقد خُلق إبراهيم متقدمًا، فليس المعنى إني خالقك للناس إماما، وإنما المعنى مُصيرك للناس إمامًا.

ومثله قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: 40], فلا يعني ذلك اخلقني مقيم الصلاة.

ومثله قوله تعالى عن موسى: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7].

فبأي حجة قال الجهمي هنا "جعل" بمعنى "خلق"؟

إذًا: هي فعل من أفعال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وليست بمعنى "خلق", وإنما هي بمعنى قدَّر صيَّر سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

هذا بالنسبة لما جاء على لسان الإمام أحمد، إذًا: ناظرهم بالقرآن وكما قلنا ينبغي أن يتفق المناظِر والمناظَر على أصل يرجعون إليه.

وأما بالنسبة للغة فما أجهل أهل البدع بلغة العرب، بل ما أُوتي أهل البدع إلا من جهة جهلهم بلغة العرب, فالذي يجعل كل "جعل" بمعنى "خلق" هذا جاهل بلغة العرب.

قال البخاري رَحِمَهُ اللهُ في تاريخه عن الحسن البصري قال: "إنما أهلكتهم العُجمة -يعني أهل البدع- فالذي صيرهم إلى مثل هذه الأمور العُجمة وجهلهم بلغة العرب".

وقال الشافعي كما نقل عنه السيوطي في صون المنطق قال: "ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب".

أين الجهل بلسان العرب هاهنا؟ أنهم لم يفرقوا بين "جعل" التي تنصب مفعولين و "جعل" التي تنصب مفعولًا واحدًا, فإن "جعل" التي تنصب مفعولين لا تأتي بمعنى "خلق", وإنما تأتي بمعنى صيَّر أو قدَّر أو حوَّل، وأما التي تنصب مفعولًا واحدًا فهي التي تأتي بمعنى "خلق".

قال **ابن أبي العز** في شرح الطحاوية: "وما أفسده من استدلال أنهم يستدلون بقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: 3], فإن "جعل"

إذا كان بمعنى "خلق" يتعدى إلى مفعول واحد، وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى "خلق", وإنما كان بمعنًى غير هذا المعنى".

فقال له إسحاق هاهنا: أفيكون مجعولًا إلا مخلوقًا؟

قال أبي: فقلت: فقد قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: 5], أفخلقهم؟ فرد عليه شبهته بقول قاطع قال: اذهبوا به.

قال أبي: فأُنزلت إلى شاطئ دجلة فأُحدرت, وهذا تصحيف وإنما هي فأُخرجت كما في السير.

قال: فأُخرجت إلى الموضع المعروف بباب البستان ومعي بغا الكبير أحد الشُرط ورسولٌ من قبل إسحاق.

فقال بغا لمحمد الحارس بالفارسية: ما تريدون من هذا؟

قال: يريدون منه أن يقول القرآن مخلوقٌ.

فقال: ما أعرف شيئًا من هذا إلا قول: "لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله" وقُرابة أمير المؤمنين من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال أبي: فلما صرنا إلى الشط أخرجت من الزورق وحملت على دابةٍ والأقياد عليَّ وما معي أحدٌ يُمسكني فجعلت أكاد أخِرُّ على وجهي, حتى انتهى بي إلى الدار, فأدخلت ثم خرج بي إلى حجرةٍ فصُيرت في بيتٍ منها وأُغلق علي الباب وأُقعد عليه رجلٌ, وذلك في جوف الليل وليس في البيت سراجٌ فاحتجت إلى الوضوء, فمددت يدي أطلب شيئًا فإذا بإناءٍ فيه ماءٌ وطشت, فتهيأت للصلاة وقمت أصلي.

والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في هذه المحنة أكرم الإمام أحمد بكثير من الكرامات، منها هذه الكرامة؛ لم يكن أحد في البيت، ولم يكن هناك ماء في البيت، ومع ذلك لما مدَّ يده أكرمه الله عَزَّ وَجَلَّ بماء الوضوء، وكان الله عَزَّ وَجَلَّ يثبته بكثير ممن يعرفهم ولا يعرفهم، ثبته الله عَزَّ وَجَلَّ بلص، وبشارب خمر، وثبته بغير هؤلاء، بكلمات هؤلاء. فكان كل ذلك تأييدًا من الله عَزَّ وَجَلَّ للإمام أحمد حتى ينصر الله عَزَّ وَجَلَّ به السنة ويدحض به البدعة.

قال: فلما أصبحت جاءني الرسول فأخذ بيدي فأدخلني الدار، وإذا هو جالس -يعني المعتصم- وابن أبي دؤاد حاضر، وقد جمع أصحابه، والدار غاصّة بأهلها. فلما دنوت منه سلمت، فقال: ادنه، فلم يزل يدنيني حتى قربت منه، ثم قال لي: اجلس، فجلست وقد أثقلتني الأقياد، فلما مكثت هنيهة قلت: تأذن في الكلام؟ قال: تكلم. قلت: إلى ما دعا إليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

جاء في بعض روايات هذه المناظرة، وليس موجودًا هاهنا، أن أحمد قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

قال: ثم قلت له إن جدك ابن عباس حكى أن وفد عبد القيس لما قدموا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرهم بالإيمان بالله تعالى، فقال: «**أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا الْخُمُسَ مِنَ الْمَغْنَمِ**».

حدثنا أبو الفضل، قال: حدثني أبي -أبو الفضل هو صالح الذي روى هذه المناظرة- حدثنا أبو الفضل، قال حدثني أبي، قال حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة, قال: حدثني أبو حمزة, قال: سمعت ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قال: إن وفد عبد القيس لما قدموا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرهم بالإيمان، فذكر مثل ذلك.

لماذا ذكر الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ هذا الحديث؟ يريد أن يقول له: إن هذا الأمر الذي تدعو إليه، ويدعو إليه هؤلاء، ما دعا إليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما جعله علامة على إيمان العبد، وإنما العلامة على إيمان العبد أن يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأن يؤمن بهذه الأركان الخمس للإسلام.

وهذا الذي قاله الإمام أحمد هاهنا ليتفطن له المعتصم هو الأمر الذي به رُفعت المحنة ونُصرت السنة، فهذا الذي ناظر به أبو عبد الرحمن الأذرمي أحمد بن أبي دؤاد أمام الواثق.

مناظرة عبد الرحمن الأذرمي ورفع المحنة:

فإن أحمد بن أبي دؤاد كان يصنع كما يصنع أهل الفتن في هذا الزمان، إذا وجد شيخًا وعلم أنه قد يتكلم في الدين أو العلم جاء به ليناظره أمام الخليفة ليُظهر ضعفه، وليَظهر أحمد بن أبي دؤاد بقوة حجته أمام الخليفة.

فما كان منه إلا أن جاء بأبي عبد الرحمن الأذرمي هذا، وهو مقيد في أغلاله، جاء به أمام الواثق، لأنه أبى أن يقول بخلق القرآن، وأراد أن يناظره أمام الواثق.

فقال أبو عبد الرحمن: يا أمير المؤمنين، إن أحمد يضعُف في المناظرة وليس صاحب حُجة.

فقال الواثق: ناظره.

فقال أبو عبد الرحمن: يا أحمد إلى ما دعوت الناس ودعوتني إليه؟

فقال: إلى أن تقول القرآن مخلوق، لأن كل شيء دون الله مخلوق، وسيأتي استدلالهم بقول الله تعالى: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر: 62].

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين،إن رأيت أن تحفظ علي وعليه ما يقول -يعني سجل ما أقول وما سيقول-.

فقال الخليفة: أفعل.

فقال: أخبرني يا أحمد، مقولتك هذه واجبة داخلة في عقد الدين، فلا يكون الدين كاملًا حتى يقال فيه ما قلت؟

قال أحمد: نعم.

فقال الشيخ: فهل ستر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئا مما أمر الله به في دينه؟

قال أحمد بن أبي دؤاد: لا.

فقال الشيخ: فدعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمة إلى مقالتك هذه؟

فسكت أحمد.

فقال الشيخ: تكلم.

فسكت أحمد.

قال له: تكلم.

فسكت أحمد.

فقال: يا أمير المؤمنين هذه واحدة.

فقال الواثق: واحدة.

ثم قال الشيخ: هذه المقالة علمها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم جهلها؟ -لو قال جهلها لكفر-.

فقال: علمها.

فقال: فدعا الناس إليها؟

فسكت.

فقال: يا أحمد فاتسع لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، إذ علموها كما زعمت ولم يطالبوا الأمة بها؟

قال: نعم.

فالتفت للواثق -خلاص انتهى الأمر مع أحمد بن أبي دؤاد بان عجزه- فالتفت أبو عبد الرحمن الأذرمي للواثق وقال: يا أمير المؤمنين، إن لم يتسع لك من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأبي بكر، وعثمان، وعمر، وعلي، فلا وسَّع الله على من لم يتسع له ذلك.

فأخذ الواثق يكرر ذلك ويقول: حقًا لا وسَّع الله على من لم يتسع له ذلك.

وقد قيل إن الواثق تاب من بعد هذه المناظرة.

وهذه المناظرة كانت سببًا في رفع المتوكل للمحنة، لأنه سمع هذه المناظرة، ولما سُئل عن السبب الذي من أجله رفع المحنة ونصر السنة ذكر هذه المناظرة التي كانت بين أبي عبد الرحمن الأذرمي وبين الواثق.

فهاهنا أحمد رَحِمَهُ اللهُ يريد أن يقول للخليفة المعتصم: هذا الأمر لم يدع له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يأتيه الوفود يأخذون الإيمان عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان يدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، إلى

أركان الإيمان الخمس، إلى أركان الإيمان الست، وما سمعنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما جاء عنه أنه دعا لمثل هذه الأمور.

ولذلك لما ذكر أحمد رَحِمَهُ اللهُ هذه الحجة أمام المعتصم ماذا قال المعتصم؟

قال: قال أبو الفضل -يعني صالح راوي هذه المناظرة- قال أبي: فقال لي عند ذلك: لولا أني وجدتك في يد من كان قبلي ما عرضت لك.

ثم التفت إلى عبد الرحمن بن إسحاق فقال له: يا عبد الرحمن ألم آمرك أن ترفع المحنة؟

قال أبي: فقلت في نفسي الله أكبر إن في هذا لفرجًا للمسلمين.

قال: ثم قال: ناظروه -لأن أهل البدع ما تركوا المعتصم وإنما سولوا له أن يناظره مرة أخرى- فقال: ناظروه وكلموه.

ثم قال: يا عبد الرحمن كلّمه، فقال لي عبد الرحمن: ما تقول في القرآن؟

فقال أحمد رَحِمَهُ اللهُ: ما تقول في علم الله؟

فسكت.

وهذا الذي مال إليه أحمد وجنح إليه أحمد رَحِمَهُ اللهُ يسمى في أحوال الجدل والمناظرة بالإلزام، وهو عجز السائل عن التعرض له بعد أن ينتهي إلى مقدمة ضرورية القبول أو مسلَّمة عند السائل.

أن يأتي له بأمر ما يعجز أن ينتهي أو أن يتعرض له، لماذا؟ لأنه يصل به إلى مقدمة ضرورية أو مسلَّمة عند السامعين.

فأحمد هاهنا رَحِمَهُ اللهُ ألزمه بمقدمة ضرورية، ما هذه المقدمة؟ هي أن القرآن من علم الله، لأن القرآن كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، صفة من صفاته، تكلم به، والله يتكلم بما عنده من العلم سُبْحَانَهُ وَتعَالَى فهو من علم الله.

فلما قال له: ما تقول في القرآن؟ لو قال مخلوق -كما يقول في القرآن- لكفر وكفَّره المعتصم، وبالتالي سكت. ولذلك كان الشافعي رَحِمَهُ اللهُ يقول ماذا؟ "ناظروهم بالعلم -بعلم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فإن أقروا وإلا خُصموا".

فقال: ما تقول في علم الله؟ فسكت.

في رواية لهذه المناظرة قال له: كان الله ولا قرآن؟ -يعني أحمد بن أبي دؤاد يقول لابن حنبل: كان الله ولا قرآن؟- قال أحمد: كان الله ولا علم؟ فسكت مرة أخرى.

قال أبي: فجعل يُكلمني هذا وهذا، فأرد على هذا ثم أقول: يا أمير المؤمنين, أعطوني شيئا من كتاب الله أو سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقول به.

فيقول لي ابن أبي دؤاد: وأنت لا تقول إلا كما في كتاب الله أو سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

هل هذا الكلام من أحمد يدل على عجزه عن الحجج العقلية، وعن عجز أهل السنة والجماعة عن استخدام الحجج العقلية؟ بالطبع لا.

أهل السنة هم أفضل الناس استخدامًا للحجج العقلية، سواء كانت هذه الحجج من القرآن أو من خارج القرآن، ولكنهم يرفضون الحجج الفاسدة والعقول الفاسدة.

ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عن أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ خاصة قال: وأحمد أشهر وأكثر كلامًا في أصول الدين بالأدلة العقلية، نقلها وعقلها من سائر الأئمة. لماذا؟ قال: لأنه ابتُلي بمخالف السنة فاحتاج إلى ذلك.

وأما ما يشاع عن السلف من قبل أهل البدع من أهل الكلام الباطل؛ أنهم لا خبرة لهم بالجدل، بل هم أعداء العقل، وأنهم أصحاب دفاتر ومحابر، ولا يستدلون إلا بالخبر المجرد، ولا خبرة لهم بالجدل، وأن طريقتهم أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم، فكل هذا باطل.

فأحمد عندما قال له آية أو حديث لم يُرد بذلك أن يَردَّ كل الحجج العقلية، وإلا فلو نظرت في مناظرات أحمد للجهمية خاصة لوجدت أنه استدل كثيرا بالحجج العقلية من القرآن وغير القرآن.

يعني من القرآن، كيف استدل على المعتزلة بأن تعدد الصفات لا يعني تعدد الذوات؟ لأن المعتزلة ينفون الصفات عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لأنهم زعموا أن تعدد الصفات، أن تسمية الله بالسميع والعليم والبصير، واشتمال الأسماء على صفات يلزم منه تعدد الذوات، فلا نعبد إلها واحدا وإنما نعبد آلهة متعددة, فشابهنا بذلك النصارى.

فأحمد احتج عليهم بالقرآن بحجة عقلية، قال: قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ [المدثر: 11-14]. هذه أوصاف كثيرة لموصوف واحد، ولا يعني ذلك تعدده.

ذكر لهم النخلة كما في الرد على الجهمية والزنادقة، قال: أخبروني عن النخلة، لها جريد، ولها جمار، ولها كرب -الذي هو الكرناف- ولها غير ذلك، ومع ذلك هي نخلة واحدة.

قال لهم رَحِمَهُ اللهُ وهو يبين لهم أن استواء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على عرشه وأن نزوله إلى السماء الدنيا لا يعني أن حيزا يحوزه، وأنه جسم داخل الأجسام - حاشاه وكلا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى- ماذا قال لهم؟ قال: لو أن رجلا كان في يده قدح من قوارير صافٍ -يعني فيه شراب صاف تستطيع أن ترى ما فيه- وفيه شراب صافٍ، كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح. فالله وله المثل الأعلى، قد أحاط بجميع خلقه من غير أن يكون في شيء من خلقه.

فاستخدم الحجج العقلية، فليس معنى قول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: آية أو حديث، ليس معنى ذلك أنه يرفض الحجج العقلية، وأنه لا يُعمِل العقل، ولكن أيُّ عقل؟ العقل الصريح الذي لا يخالف النقل الصحيح.

فقال له ابن أبي دؤاد: وأنت لا تقول إلا كما في كتاب الله أو سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

قال: فقلت له: تأولت تأويلًا فأنت أعلم -يعني هذا الذي تقوله أنا لا أعرف عنه شيئًا ولا أدري ما تقول، هذا لا يدل عليه لا كتاب ولا آية، وما تأولت ما يُحبَس عليه ويُقيد عليه-.

قال: فقال ابن أبي دؤاد: فهو والله يا أمير المؤمنين ضال مضل مبتدع يا أمير المؤمنين، وهؤلاء قضاتك والفقهاء فسلهم.

عجز عن مقارعة الحجة بالحجة فذهب إلى التهديد والتهويل, وهذا الذي فعله مع أحمد بن نصر الخزاعي، فعل نفس الأمر أمام الواثق، حتى حمل الواثق على قتله بنفسه، وعلى التقرب بذلك إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حتى قال الواثق: إذا رأيتموني قمت إليه فلا يمنعني أحد. وقتل أحمد بن نصر الخزاعي قُربة لله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: فيقول لهم: ما تقولون؟ -لما قال سل الفقهاء سلهم، قال: ما تقولون؟- قالوا: فقالوا: يا أمير المؤمنين هو ضال مضل مبتدع.

قال: فلا يزالون يكلموني، وقال: وجعل صوتي يعلو على أصواتهم -يعني بالحجة والبرهان-.

فقال لي إنسان منهم: قال الله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: 2], فيكون محدثًا إلا مخلوقًا؟ -لأن الحديث بمعنى الجديد- فقال له: لا يكون محدثًا إلا مخلوقًا، كما قال له: لا يكون مجعولًا إلا مخلوقًا.

قال: قلت له: قال الله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: 1], فالذكر هو القرآن, ويلك، ليس فيها ألف ولا لام عندك؟ أليس فيها ألف ولا لام؟ هي ليس فيها ألف ولا لام.

يريد أن الآية التي احتج بها، وهو قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: 2], جاء الذكر هاهنا نكرة غير مُعرَّف، بخلاف الآية التي ذكرها أحمد، فأحمد ذكر قول الله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: 1],

فبين أن الذكر إذا عُرِّف في القرآن فالمراد به القرآن، أما إذا جاءت لفظة ذكر مُنكَّرة فتحتمل القرآن وتحتمل غيره.

فليس معنى ذلك أن القرآن مُحدَث يعني مخلوق، فليس المراد بالذكر هاهنا - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان جواب أحمد على المعتزلة-.

قال: فليس المراد بالذكر المحدث المخلوق الذي يقوله الجهمي، ولكن المراد: -ما معنى قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: 2]- لكن المراد الذي أُنزل جديدًا. فالقرآن ما نزل جملة واحدة، وإنما نزل منجمًا.

قال: ولكن المراد الذي أُنزل جديدًا، فإن الله كان ينزل القرآن شيئا بعد شيء، والمُنَزَّل أولا هو قديم بالنسبة إلى المنزَّل آخرًا، وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب، كما قال تعالى: ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: 39].

ولذلك أهل السنة والجماعة يقولون: القرآن قديم النوع حادث الآحاد. وكلام الله عَزَّ وَجَلَّ قديم النوع حادث الآحاد، لأن الكلام صفة ذات وصفة فعل، فالله عَزَّ وَجَلَّ لم يزل متكلمًا سُبْحَانَهُ وَتعَالَى، وما استفاد صفة الكلام بعد إنزاله وتكليمه الرسل وتكليمه الملائكة، بل هو سُبْحَانَهُ وَتعَالَى لا يزال متكلمًا، يتكلم وقتما شاء بما شاء.

طيب ما معنى حادث النوع؟ أي أن الله عَزَّ وَجَلَّ ينزل القرآن وقتما شاء، ينزل آية بعد آية، وسورة بعد سورة، فتكون السورة التي نزلت آخرًا تكون حديثة بالصورة بالنسبة للسورة التي نزلت قبلها، هذا جواب شيخ الإسلام ابن تيمية وتفسيره لقول أحمد رَحِمَهُ اللهُ.

قال ابن بطة رَحِمَهُ اللهُ في الإبانة: "والمراد -من هذه الآية ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: 2]- قال: والمراد محدثًا علمه، محدثًا خبره، وزجره، وموعظته عند محمد". فهو جديد بالنسبة لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما نزل به الوحي إلا الآن.

ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113].

ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: 52].

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كان يحسر عن رأسه إذا نزل المطر ماذا كان يقول؟ «إِنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ»، يعني ما نزل إلا الآن، وفي هذا الحديث دليل على علو الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

قال: فجعل ابن سماعة لا يفهم ما أقول. يعني هم لا يفهمون حجج الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ، وذلك لجهلهم بالكتاب والسنة وبلغة العرب.

قال: فجعل يقول لهم: ما يقول؟ قال: فقالوا: إنه يقول كذا وكذا.

قال: فقال لي إنسان منهم: حديث خباب: «يَا هَنَتَاهُ، تَقَرَّبْ إِلَى اللَّهِ بِمَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّكَ لَنْ تَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَلَامِهِ».

قال: فقلت: نعم هكذا هو.

قال: فجعل ابن أبي دؤاد ينظر إليه ويلحظه متغيظًا عليه. يعني كأن هذا القائل الذي كان مع أحمد بن أبي دؤاد أراد أن ينصر ما عليه أحمد بن حنبل.

فذكر حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي يرويه خباب، وهذا الحديث أخرجه الآجري في الشريعة وسنده حسن، وحسَّنه محقق السير.

وفي الحديث: «تَقَرَّبْ إِلَى اللَّهِ بِمَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّكَ لَنْ تَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَلَامِهِ». فأضاف الكلام إليه سُبْحَانَهُ وَتعَالَى.

فنظر إليه أحمد بن أبي دؤاد وهو متغيظٌ عليه، يعني لماذا جاء بهذا الدليل وبهذه الحجة.

قال أبي: فقال بعضهم: أليس قال: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 102]؟

قال: فقلت: قد قال: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: 25] فدمرت إلا ما أراد الله.

وتذكروا قول الشافعي: أحمد إمامٌ في الأصول. وقد سبق أنه إمامٌ في القرآن، ولك أن تتخيل أن هذه الشبه ما سمعها أحمد إلا الآن، يعني واحدٌ منا مثلًا إذا أراد أن يرد على واحدٍ من المبتدعة في مسألةٍ كمسألة الخروج يعلم شبهات المبتدعة, سيستدلون بخروج الحسين أو يُضعفون حديث: «وَإِنْ جُلِدَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ» أو «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ». ويأتي هؤلاء أو يناظرهم أو يجادلهم وعنده أجوبة هذه الأمور والرد على هذه الشبهات. أما أحمد رَحِمَهُ اللهُ يسمع هذه الشبهات للمرة الأولى ومع ذلك الجواب حاضرًا. فكان إمامًا رَحِمَهُ اللهُ في اللغة والأصول والحديث وغير ذلك.

فاستدل عليه بقول الله تعالى: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 102]، ونحن نعلم أن "كل" من ألفاظ العموم، فدل ذلك على أن كل ما يصدُق عليه أنه شيء فهو مخلوق، والقرآن شيء، إذًا القرآن مخلوق.

فكيف رد عليه أحمد رَحِمَهُ اللهُ؟ رد عليه بآية قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: 25].

قال: فدمرت إلا ما أراد الله، يعني ما دمرت السماوات والأرض، وما دمرت مساكنهم, ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: 25]، فدل ذلك على أن الآية من العام الذي أُريد به الخصوص. وهذا هو الصحيح في قول الله تعالى: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 102].

وكذلك ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: 25], هذا ليس من العام المخصوص، لأن صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لم تدخل في هذه الكلية حتى نخرجها بعد ذلك نقول خصصها العقل، أو الآية خصصها الحس، إنما هي لم تدخل أصلًا من البداية.

فهذا يسمى بالعام الذي أريد به الخصوص، عام صورته صورة العام ولكن أريد به الخصوص.

فهناك من العام ما هو عامٌّ على إطلاقه لم يخصص مطلقًا: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 284].

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6]، هذه آية عامة لم تخصص.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 75], لم تخصص.

وهناك عام مخصوص، يعني جاء لفظٌ عام وجاء ما يخصصه في كتاب الله أو في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهناك عام أريد به الخصوص: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: 173]، فهذا عام، لفظ عام "الناس" ومع ذلك أريد به فرد واحد أو مجموعة من الأفراد.

فأحمد رَحِمَهُ اللهُ ماذا قال؟ قال: فدمرت إلا ما أراد الله.

قال ابن أبي العز: وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: 62], والقرآن شيء، فيكون داخلًا في عموم "كل" فيكون مخلوقًا، فمن أعجب العجب.

لماذا هو من أعجب العجب؟ لأنهم يقولون إن أفعال العباد غير مخلوقة، فلماذا لم يدخلوها في هذه الكلية؟

فيقول: هذا من أعجب العجب، وذلك أن أفعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى، وإنما يخلقها العباد جميعها، فأخرجوها من عموم "كل" وأدخلوا كلام الله في عمومها، مع أنه صفة من صفاته به تكون الأشياء المخلوقة؛ إذ بأمره تكون المخلوقات؛ قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54]، ففرَّق بين الخلق والأمر، فدل ذلك على أن الخلق غير الأمر.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: وعموم "كُلِّ" في كل موضع بحسبه.

عموم كلمة "كل" في كل موضع بحسبه، قد تكون من العموم الذي لم يخصص، أو من العموم المخصوص، أو من العموم الذي أريد به الخصوص.

قال: ويُعرف ذلك بالقرائن. ألا ترى إلى قوله تعالى -واستدل بقول الإمام أحمد-: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: 25], ومساكنهم شيء ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح.

ومثله قوله تعالى عن بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 23], ولم تؤت عرش سليمان ولا مُلك سليمان.

فالمراد من الآية: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: 62]: مخلوق، وكل موجود سوى الله وصفاته الملازمة لذاته فهو مخلوق.

وقوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ [الأنعام: 19], هذا فيه دلالة على أن الله يخبر عنه بأنه شيء وعن صفاته كذلك.

وقال: فقال لي بعضهم: فيما يقول؟ وذكر حديث عمران بن حصين أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى كتب الذكر، فقال: إن الله خلق الذكر، حرّف الحديث، وأحمد إمام في الحديث رَحِمَهُ اللهُ.

قال: فقلت: هذا خطأ حدثنا غير واحد: "كَتَبَ الذِّكْرَ". وهذا الفعل مشهور عند أهل البدع مسألة التحريف, سواء التحريف اللفظي أو التحريف المعنوي لمعنى الآيات والأحاديث، هذا مشهور وتجدوه كثيرًا عند أهل البدع، ومنهم من كان يضع الأحاديث نصرة لمذهبه، والأمثلة على ذلك كثيرة.

يعني عمرو بن عبيد جاء للقارئ وهو أحد القراء لأبي عمرو بن العلاء فقال له: أحب أن تقرأ هذا الحرف: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164].

من الفاعل؟ من المتكلم؟ الله، هذه القراءة الصحيحة، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ﴾, فالله فاعل وموسى مفعول صحيح, ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164].

أراد منه أن يقرأها حتى يتأسى الناس به: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهَ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164], ليكون موسى هو المتكلم، والله هو الذي يسمعه، ليكون موسى هو الذي كلم الله.

فقال له أبو عمرو: فكيف تصنع بقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: 143]؟ ماذا أصنع في هذه الإضافة وفي هذا الضمير؟

وكذلك من تحريفهم قراءتهم قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: 2] قرأوها بتنوين "شرٍّ"، وجعلوا ما نافية: "من شرٍّ ما خلق"، لأنهم ينفون خلق الله عَزَّ وَجَلَّ للشر. وهذه قراءة شاذة مردودة.

والقراءة عندنا قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ [الأعراف: 156]. قرأوها: "عذابي أصيب به من أساء"، لينفوا بذلك دخول أهل الكبائر تحت مشيئة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يوم القيامة.

هذا فضلًا عن ردهم للأحاديث الثابتة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحجة أنها آحاد أو أنها تخالف العقل.

ومن ذلك ما جاء كذلك عن هذا الجهمي الضال عمرو بن عبيد أنه قال في حديث ابن مسعود: "حَدَّثَنِي الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ", جاء في تاريخ بغداد أنه قال: لو سمعت الأعمش -راوي الحديث- يقول هذا لكذَّبته، ولو سمعت زيد بن وهب -الذي رواه عنه الأعمش- يقول هذا ما أجبته، ولو سمعت ابن مسعود يقول هذا ما قبلته، ولو سمعت رسول الله يقول هذا لرددته، ولو سمعت الله يقول هذا لقلت: ليس على هذا أخذت ميثاقنا.

وهذا يدل على عدم احترامهم لكتاب الله ولا سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال: إن الله خلق الذكر.

فقال أحمد: هذا خطأ، حدثنا غير واحد: "كَتَبَ الذِّكْرَ".

قال أبي: فكان إذا انقطع الرجل منهم اعترض ابن أبي دؤاد يتكلم، يعني ابن أبي دؤاد هذا صدّر مجموعة من السفهاء ليناظروا أحمد، فإذا انقطعوا تصدّر ابن أبي دؤاد.

قال: اعترض ابن أبي دؤاد يتكلم. قال: فلما قارب الزوال قال لهم: قوموا. ثم حبس عبد الرحمن بن إسحاق، يعني منعه من الخروج لكي يكلمه.

قال: فخلا بي وبعبد الرحمن فجعل يقول لي: أما كنت تعرف صالحًا الرشيدي؟ كان مؤدبي. المعتصم يقول صالح هذا كان مؤدبه وكان معلمه ومربيه. وكان في هذا الموضع جالس، وأشار إلى ناحية في الدار قال: فتكلم فذكر القرآن فخالفني -يعني أنه قال الحق وقال هو غير مخلوق-، قال: فأمرت به فسُحب ووُطئ.

قال أبي: ثم جعل يقول لي: ما أعرفك، ألم تكن تأتينا؟

فقال له عبد الرحمن: يا أمير المؤمنين أعرفه منذ ثلاثين سنة يرى طاعتك والحج والجهاد معك وهو ملازم لمنزله.

يعني الأمر يدور بين الترغيب والترهيب، يعني أجبني إلى ما أريد وسأقربك وأدنيك مني وإلا سيحدث لك ويحصل لك ما حصل لصالح الرشيدي هذا.

فجعل يقول: والله إنه لفقيه -يعني يثني على أحمد- وإنه لعالم، وما يسرني أن يكون مثله معي يرد عني أهل الملل، ولئن أجابني إلى شيء له فيه أدنى فرج -يعني يقول كلمة واحدة وأنا أفرج عنه- لأطلقن عنه بيدي، ولأوطئن عقبه، ولأركبن إليه بجندي. يعني يذهب إليه ويكرمه.

قال: ثم يلتفت إلي، فيقول: ويحك يا أحمد ما تقول؟

يعني لعل أحمد غيّر عقيدته بعد هذه الإغراءات، ولكن هيهات أحمد ثابت ثبته الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يرجع عن عقيدته أبدًا، وقد كان إمامًا في الزهد والورع والسنة.

قال: فأقول: يا أمير المؤمنين, أعطوني شيئًا من كتاب الله أو من سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: فلما طال المجلس ضجر فقام فرُددت إلى الموضع الذي كنت فيه.

استمرت المناظرات واستمر التضييق والتعذيب الشديد لأحمد، وبلغ أشده في عهد الواثق، فقد كان الواثق شديدًا جدًا على أهل السنة والجماعة وكان يتولى تعذيبهم بنفسه, حتى منّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى برفع هذه المحنة عن أهل السنة والجماعة على يد المتوكل بن المعتصم، فقد كان المتوكل ابنًا للمعتصم.

ومن عجيب ما وقع أن عبد العزيز الكناني قال للمتوكل -عبد العزيز الكناني هذا إمام من أئمة أهل السنة والجماعة وله مناظرة مشهورة جدًا فيها كثير من الحجج العقلية التي تبين يعني قوة أهل السنة في هذا الباب منشورة بعنوان الحيدة، لأن أحمد بن أبي دؤاد كان يحيد كثيرًا عن الحق ولكن عبد العزيز كان يأتي به إلى النقطة التي يتناقشون فيها-.

فقال عبد العزيز الكناني بعد أن رُفعت المحنة قال للمتوكل: يا أمير المؤمنين, ما رؤي أعجب من أمر الواثق، قُتل أحمد بن نصر وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دُفن. يعني قيل إن أحمد بن نصر بعد أن قتلوه وقطعوا رأسه وحتى عند دفنه كان يقرأ القرآن كرامة له.

قال: فوجد المتوكل من ذلك وساءه ما سمع في أخيه الواثق. يعني هذا الكلام كأنه أغضبه لأن هذا الكلام فيه طعن في الواثق أنه حمل الناس على غير الحق.

فلما دخل عليه الوزير محمد بن عبد الملك الزيات قال له المتوكل: في قلبي من قتل أحمد بن نصر. يعني أشعر كأن أحمد قُتل مظلومًا.

فقال له –محمد بن عبد الملك الزيات–: يا أمير المؤمنين, أَحْرَقَني الله بالنار إن قتله أمير المؤمنين إلا كافرًا.

ودخل عليه هرثمة –رجل آخر– فقال له في ذلك –يعني أجد في نفسي شيئًا من قتل الواثق لأحمد بن نصر–: وأحمد بن نصر هذا قُتل مظلومًا, وما قُتل لخروجه على الواثق كما يروج لذلك أهل البدع, فإنهم يستدلون بما وقع من أحمد بن نصر مع الواثق على جواز الخروج. يقولون كان إمامًا في السنة وأحمد مدحه وأثنى عليه بعد موته وذلك لسعيه للخروج على الخليفة العباسي, وهذا باطل.

والرواية التي ذكرها ابن كثير وغيره رواية بلا سند.

والصحيح: أنه ما قُتل إلا من أجل القول بخلق القرآن.

ولذلك لو جئت لهذه الرواية تجد أن الواثق لم يلتفت إلى لا لمسألة الخروج ولا لأنه جمع الناس حوله لكي يخرجوا ولكي ينشروا الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر, وإنما ما سأله إلا في مسألة واحدة فقط. قال له: مَا تَقُولُ فِي الْقُرْآنِ؟ مَا تَقُولُ فِي صِفَاتِ رَبِّنَا؟ أَوَ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ وفي كل ذلك أحمد يستدل بالآيات والأحاديث ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: 22-23]، «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ»، «تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ».

عاقبة أهل البدع بعد رفع المحنة:

فحمله هؤلاء على قتل أحمد بن نصر, فظن أن قتْله قُربة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وقتله.

فقال هرثمة: يا أمير المؤمنين قطعني الله إربًا إربًا إن قتله الواثق إلا كافرًا.

ودخل أحمد بن أبي دؤاد فقال: ضربني الله بالفالج –يعني بالشلل النصفي– إن قتله أمير المؤمنين إلا كافرًا.

قال المتوكل: فأما ابن الزيات فأنا أحرقته بالنار، وأما هرثمة فإنه هرب وتبدّى –يعني ذهب إلى البدو– فاجتاز خزاعة فعرفه رجل من الحي –أحمد بن نصر الخزاعي–، فعرفه رجل من الحي فقال: يا معشر خزاعة، هذا الذي قتل ابن عمكم. فقطّعوه إربًا إربًا.

وأما ابن أبي دؤاد فقد سجنه الله في جلده وضربه الفالج قبل موته بأربع سنوات، وكان بعض الناس يدخل عليه يقول: ما جئتك لكي أزورك وإنما لكي أرى حالك, ولكي أعلم أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ابتلاك بمثل هذا الأمر الذي آليت على نفسك أن الواثق ما قتل أحمد بن نصر إلا كافرًا.

ورأى بعضهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسجد الجامع بعد أن انتهت هذه المحنة وهناك حلقة فيها أحمد بن حنبل وأصحابه وحلقة فيها أحمد بن أبي دؤاد وأصحابه، فجعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمشي بين الحلقتين ويقول: ﴿فَلْيَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ [الأنعام: 89] ويشير إلى حلقة ابن أبي دؤاد، ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: 89] ويشير إلى حلقة أحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد جعل أحمد كل من آذاه في هذه المحنة في حِلٍّ إلا ابن أبي دؤاد، جعل كل من آذاه من الأمراء والخلفاء وممن ناظره جعلهم في حل إلا ابن أبي دؤاد.

وقد نقل الخلال في السنة والخطيب في تاريخ بغداد تكفير الإمام أحمد لابن أبي دؤاد، كفَّره عينًا لأنه أقام عليه الحجة. وأما غير ابن أبي دؤاد فلم يُكفره أحمد بن حنبل.

وموقف أحمد بن حنبل مع الخلفاء غصة في حلوق الخوارج قديمًا وحديثًا، لا يطيق الواحد منهم أن تذكر له موقف أحمد بن حنبل مع هؤلاء. أحمد بن حنبل في هذا الوقت الذي يُعذَّب فيه، الذي يُوضَع بين العقابين ويُجلَد ويؤذى ويغمى عليه يغشى عليه رَحِمَهُ اللَّهُ، في هذا الوقت يكتب أصول السنة.

ومما يكتبه رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين وقد كان الناس اجتمعوا عليه وأقروا له بالخلافة بأي وجه كان بالرضا أو الغلبة، فقد شق هذا الخارج عصا المسلمين وخالف الآثار عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن مات الخارج مات ميتة جاهلية، ولا يحل قتال السلطان ولا الخروج عليه لأحد من الناس, فمن فعل ذلك فهو مبتدع على غير السنة والطريق".

في خلافة الواثق كما قلنا تفاقم الأمر فذهب الناس إليه, فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: نريد أن نشاورك لسنا نرضى بإمرته ولا بسلطانه. فناظرهم أحمد ساعةً يريد أن يثنيهم عن ذلك يقول: الدماء الدماء، يعني احذروا الدماء.

سبحان الله هذا خلاف الآثار، لا أرى ذلك ولا آمر به، الصبر على ما نحن فيه خير من الفتنة.

فيقال: لا، الناس اليوم في فتنة, هناك من يُسجن وهناك من يُقتل, الناس اليوم في فتنة.

فيقول أحمد: إنما هي فتنة الخاصة –يعني فتنة العلماء– فإذا وقع السيف عمّت الفتنة وانقطعت السبل.

هذا موقف الإمام أحمد. قارن بين موقف الإمام أحمد وبين شيوخ الحزبيين الذين قالوا: أُوذينا في الله وسُجِنّا وظُلِمنا وووو.....

ما موقفهم؟ خرجوا وجلبوا الدمار إلى بلاد المسلمين. وهذا أحمد رَحِمَهُ اللهُ يُعذب ويُسجن ويبتلى بمثل هذه الأمور ولكن ثبته الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى حتى صار إمامًا لأهل السنة بحق.

نسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يثبتنا على الكتاب والسنة حتى نلقاه إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وجزاكم الله خيرًا.